

الانتماء الجغرافي في شعر حروب الردة

أ.د. انصاف سلمان علوان

حيدر عدنان كريم

جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الانسانية

ملخص البحث

لطالما كان للمكان والانتماء اليه الأثر الكبير في النفس، كونه يمثل الملاذ الآمن، والحضن الدافئ بالنسبة لها، ومن هذا المنطق نرى التداخل والتمازج الكبير بين الكائن الحي ووطنه المكاني وعلى وجه الخصوص الانسان، وبما إنَّ الشاعر كان الأكثر تأثراً، كونه صاحب عاطفه ومزاج مختلفين، فضلاً عن خصوصية تعامله مع أماكن سكناه، وشدة تعلقه بها، لما شكلت هذه الأمكنة في مخيلته من عواطف وهواجس مختلفة، منها ما ارتبط بالحبيب، ومنها ما ارتبط بشواخص مثلت قيم قبيلته، وسجلها من الانتصارات، لذلك برزت وبوضوح علاقته بالمكان دون غيره، وبما إنَّ الانتماء: هو علاقة تتسم بالتداخل والاندماج بين الشاعر والمكان لذلك نلاحظ حضوره الفاعل في ذات الشاعر وعلى وفق ابعاده المختلفة، وبما إنَّ فترة حروب الردة شكلت مرحلة استثنائية في تاريخ الامة الإسلامية، لما شهدته من احداث واضطرابات سياسية أعقبت وفاة الرسول (ص) فقد ظهر وبشكل بارز أثر هذا الانتماء في شعر شعراء حروب الردة، من خلال تصويرهم لإماكن جسدت انتصاراتهم في هذه الحرب، فضلاً عن أماكن كانوا ينزلون بها فأحسوا بالانتماء اليها وضرورة الدفاع عنها وهذا كله انما يعكس العلاقة الوطيدة بين الانسان وموقعه المنتمي اليه، فالفرد والمكان انما يمثل وحدة متكاملة يشعر في ظلها بالألفة والحماية والأمان.

Research Summary

Always the place and belonging to it have the vast effect in the soul, since it represents the safe haven and the warm bosom for it, from this principle we can see the interfere and the big mixture between the living creature and its mother home, especially the human, so about a poet who has the biggest affection since he has different emotions and mood as well as the special treatment with his living places and the intensity of belonging, so these place have a vital space in his imagination of different emotions and obsessions, some of them connect with his love and some are with values of his tribe, so he considered them as vactories, also the relation shines clearly with the place but with no others. So the belongings is a relation that is divided into interfere and mixture between the poet and place. So we can observe his active presence in the soul of the poet according to his different dimensions, so that the opotasy battle which formwd extraordinary period in the history of Islamic nation, So it witnessed a big effect and politice disorder that came after the death of the great prophet Mohammad (Peace upon him and his relatives) Where there was the belonging in the poetry of the opotasy battles poets through their picturing of ,the

place Where they achieved victories in those battles as well as their living places so they felt the belonging to them , So that it is necessary to defend about these places. All of those reflect the firm relation between the human beings so the human and the places represent complete identity that he feels in the friendship, protection and safety under its Shadow.

المقدمة

تناولت هذه الدراسة الدور الأساس الذي يلعبه الموقع الجغرافي وأثره الكبير في حياة المجتمع بفعل التعامل اليومي، فقد شكل المكان معلماً بارزاً، وكاشفاً، ومحط عناية واهتمام كبيرين من قبل الشعراء، ولذلك حفل الشعراء بالكثير من أسماء المواطن والأمكنة التي تعلقَت صورها في اذهانهم لارتباطها بحوادث وعواطف شغلت الحيز الأكبر من احساسهم، وهواجسهم مما جعل للمكان والشعور بالانتساب اليه، وتصوير هذا الامر من أبرز عناصر تشكيل وتكوين الشعر العربي على مر العصور.

التمهيد

يعد المكان من العناصر المهمة التي تؤثر في حياتنا جميعاً، فهو التجربة الحسية التي يتعامل معها الإنسان تعاملًا مباشرة ويتحول في الوعي الى صور معنوية تضرب في صميم الوجداني والفكر على السواء. وقد تعددت الدراسات التي تناولته بالبحث والتحليل في شتى أبعاده الفلسفية والنفسية والادبية فظل المكان مجالاً مفتوحة للمبدعين يبنون منه أوطاناً لهم في نتاجاتهم ويمثلون به الأحداث والذكريات، ويحملونه معاناتهم الإنسانية بدلالات ورموز وصور لا ينتهي مداها. والمكان من وسائل التعبير التي تكشف عن الشخصيات وهي تتحرك فيه، وعن الاحداث والتاريخ والانتماء والصراع والحنين، وكل ما يرتبط به الانسان من أشياء لها قيمة عاطفية أو فكرية بأطار محيطة أو بيئته وبوساطة هذا الترابط بين الإنسان والمكان يبرز جلوة الوعي والاحساس لدى الفرد بالانتماء الى الفضاء الذي يتعامل معه أو يحلم به وينتمي إليه. وتتبع أهمية المكان للإنسان بوصفه مثار إدراك العلاقات الحيوية في البيئة على صعيد الفرد والجماعة فضلاً عن كونه يضيف معنى ونظام على عالم الواقع والنشاطات، فجميع نشاطات الانسان لا تكتسب معنى إلا بعلاقاتها بأماكن معينة وخير من جسد تلك العلاقات الجدية التي قامت بين الانسان والمكان منذ بدء الخليقة والى يومنا هذا في قصة خلق آدم عليه السلام وتكريمه بأن تكون الجنة سكناً له، قال تعالى: (وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة)(١). فالأرض تشكل منطلق الرؤية عند الشاعر حيث تجري فوقها وقائع حياته، ويرى فيها عوالمه المحببة وأنها أمة الرؤوم وفيها أسراره وبيئته وكيانه، وهي مكان الصراع، لانها مكان الرسائل، ومن الواضح أن عصر صدر الإسلام كان عصر صراع، وإن الأرض كانت ساحة الصراع ولهذا كان لها ديمومة الحضور متشكلة في اللاوعي عند الشاعر، فالشعر هو الخيط الذي ما يزال موصولاً فيما بيننا وبين الماضي، بما فيه من مدن وحضارات، ولكن هذا الخيط ظل ثابتة ومستمرة ومتجددة واثيرة، وستبقى تلك القصائد القديمة. من زمن ظهور الاسلام، تتحدث بوضوح من صميم السلف الصالح، فيها من التصوير لتلك العلاقة الجدلية بين عالمين عالم الشاعر الداخلي والعالم الخارجي

المحيط بالشاعر، وتظهر الجدلية بينهما من كون الانسان غير قادر على تحقيق وجوده وكيانه إلا في مكان وبيئة وفي المكان والبيئة أبعاد لا تتحقق ملامحها إلا بوجود الإنسان ومن هذا فإن الإنسان والبيئة هما مصدر الحياة. فالإنسان في هذا العصر اي العصر الاسلامي قد امضى حياته في أجواء بيئته الطبيعية متفاعلا معها لبساطة عيشته، وأنه بأمكاناته الحضارية المتواضعة يجدها طبيعية عديدة تمتع عن الرضوخ له، لقد كان العالم طبيعية بجباله وصحرائه ومائه وهوائه، وكان الانسان بين الأرض التي يطؤها بقدميه وبين السماء التي يرمقها ببصره لا ترتقي معارفه الى كروية الأرض أو ما يحيط بارضه من افلاك وكواكب، فكل ما يراه من شمس وقمر أو نجوم يضمنها تغرب في ماء وطنين. أما علاقة المكان بالشعراء فهي أعمق بكثير من علاقته بغيرهم من الناس مما يراه غيرهم قد يكون بفعل التعايش اليومي، من دون الإحساس بالمكان بوصفه المهد الكبير الذي يأوينا ويمتلك أسباب حياتنا. فنظرة هؤلاء الى المكان نظرة واقعية بعيدة عن اعماق المكان وما وراءه. ومن هنا يحصل التفاعل بين الذات والموضوع، فتعكس الذات على العالم الخارجي متفاعلة معه تفاعلا نفسية. ولهذا العلاقة بين الانسان والمكان جذور في الديانات الأولى، فقد كان الناس يعبدون الظواهر الخارجية جاعلين المعابد أماكن لتمجيد الالهة، حتى صار لهذه الأماكن اثر نفسي على من يدخلها، وقد عرف الانسان العربي خاصة والشرقي عامة بقوة ارتباطه بالأرض، وهذا ما يتجلى لنا في شعرنا العربي منذ عصر ما قبل الإسلام الى يومنا هذا، ولا عجب في أن نرى التصاق الانسان العربي بالصحراء التصاق لا انفصال له. فقد الف هواجرها، واستأنس بظلمة ليلها، وتغنى بابلها وظبائها ووحوشها حتى يخيل إلينا إن الصحراء كانت واحة خضراء تحتضن الماضي، لهذا افتتن الشعراء إيما أفنتان بهذه الصحاري على الرغم من شغف العيش الذي كانوا يبحثون عنه عبر الصحاري والقفار، فهم في حالة رحيل دائم وهذا الرحيل فتح لهم ابوابا رحبة من الحنين والشوق الى تلك الأماكن التي حلوا بها ثم ارتحلوا عنها، وللمكان تأثير بارز وواضح في نفس الشعراء، لان الدور الذي يؤديه في إضفاء صفات خاصة ذو اثر كبير ورئيس في حياة أي انسان، بما يجعل سلوك البشر يتميز حسب المكان الذي يعيش فيه، فضلا عن الأهمية القصوى في تشكيل الفرد وأحاسيسه وانفعالاته منذ مراحل المبكرة، ومن هذا الارتباط يبرز وعي الفرد واحساسه بالانتماء للمكان الذي يعيش فيه.

ومن ينتبع ديوان حروب الردة يجد شعر الشعراء زاخرا بأسماء الأمكنة، حيث كان لها حضور قوية، مع اختلاف في دلالتها فمنها ما يدل على وقوع معركة فيها فتسمى المعركة بأسم ذلك المكان عند الشعراء عائد الى كونه موقع خبراتهم، وشواهد مواقفهم ومنازلهم وقد تعرض شعراء حروب الردة الى اسماء البلدان والمدن والأماكن التي شكلت جانبا واقعية في حياتهم وفي نصوصهم الشعرية.

ومن الشعراء من افتخر بانتسابه الى الاماكن ذات المجد المؤثّل والسيادة على سائر الناس (٢) ومن هذا قول الطرماح بن حكيم الطائي : (الطويل)(٣)

عزيز إذ دار الانلین حلت

لنا من حجازي طيء كل معقل

الكل أناس من معد عمارة

لنا دمنة اثارها قد اطلت.

فقد وظف الطرماح الاماكن (حجازي طيء-عمارة)، ليبين فكرة الملك التي يتميز بها قومه، فهذه الأماكن تدل على سعة الملك والسيادة، حيث تميز المفتحخر على سائر الناس، فالشاعر وظف هذه الأماكن ليدلنا على أن ملك المفتحخر بقومه واسع مترامي الأطراف، فهم يملكون جبلا طيء وهما أجا وسلمى، ففاعلية هذه الأماكن تدل على علو ورفعة قوم الشاعر. وقد بين لنا الطرماح في نفس القصيدة دلالة الموقع الجغرافي الذي تتميز به قبيلته عن باقي القبائل العربية الأخرى، وإنَّ انتمائه للمكان هو ما يدفعه للدفاع عنه.

بقوله: (الطويل)(٤)

وكانت تميم وسط قحطان إذ سمت

كمقذوفة في البحر ليلا فضلت

ونجاءك من ازد العراق كتائب

القحطان أهل الشام لما استهلته.

فالشاعر عمد الى ذكر اسماء البلدان العراق والشام) فالغاية منها هو ان يبرز القوة التي كان يتمتع بها سكان هذه البلدان، فالطرماح جعل للمكان قيمة اجتماعية بانتمائه اليها التي لها مكانة ومهابة بين القبائل العربية، حيث جسدت البطولات في ساحات القتال. ومثله أيضا في قول فيروز الديلمي مفتخر بانتمائه الى اماكن تواجد فيها قومه تميزت بالقوة والعزة والفخر(٥). من قوله: (الطويل) (٦).

وإنا وإن كانت بصنعاء دارنا

لنا نسل قوم من عرانيين نسلى

وللديلم الرزام من بعد باسل

أبي الخفض وأختار الحرور على الظل

وكانت منابيت العراق جسامها

لرهطي اذا كسرى مراجلة تغلي

وباسل أصلي إن نميت ومنصبي

كما كل عود منتهاه الى الأصل.

فالشاعر يفتخر بأقامة قومه في هذه البلدان (صنعاء، العراق) فهو يربط ذكر هذه الاماكن بالفخر والعزة وهي (عرانيين، جسام، مراجل، تغلي) حيث تدل دلالة قوية على عربيته وفخر انتمائه الى اماكن تواجد قومه، ونسل تلك القوم راجع الى تلك الاماكن التي دائما ماكان يعلوها الفخر والمجد والعزة التي عرفت عنها في سابق الايام. وقد وظف شعراء حروب الردة الى جانب هذه البلدان اماكن ومدن كانت تمتلك خاصية قدسية وذات بعد ديني بالإضافة إلى الجانب السياسي والعسكري التي كانت تحتله هذه المدن ومنها (بيت الله، طيبة، يثرب، مكة، المدينة) فهذه الاماكن كانت واجهة للدولة العربية الإسلامية لكونها مدن رسول الله (ص) التي أسس فيها حكومته (٧). كقول حسان بن ثابت: (الكامل) (٨).

انا وما حج الحجيج لبيته

ركبان مكة معشر الانصار

نغري جماحكم بكل مهند

ضرب القدار مبادي الأيسار

يفتخر حسان بأنهم السابقون الى هذا المكان المقدس (مكة) فهو المكان الذي تمثل فيه الجانب الديني والسياسي، حيث كانت تدور فيها الصراعات السياسية، فمكة جمعت بين موسم الحج وبين الحرب فهذا ما كان يدور في النص الشعري. وراح احد شعراء المسلمين يتذمر من عدم وجود منبر يخطب به في المدن ايام حروب الردة من قوله: (البيسط)(٩).

والمنبران وفصل القول في الخطب

والمسجد الثالث الشرقي كان لنا

إلا بطيبة والمحجوج ذي الحجب.

ايام لامنبر في الناس نعرفه

يبتئس الشاعر لعدم وجود منبر يخطب به ايام اضرمت الحرب نيرانها وانشغل العرب بها فهو يقول لم يبقى لي منبر إلا المسجد الثالث في البحرين والمسجد النبوي في المدينة والمسجد الحرام بمكة في فترة انشغال القبائل بالارتداد، فالشاعر يفتخر بتمسكه بدينه وعدم الانجراف في تيار الردة. ويقسم السكوني ببيت الله عندما هدد قبيلة كندة حيث ارتدت وخلعت طاعة زياد بن لبيد البياضي من قوله: (الطويل)(١٠).

ليجتلبن منها المرار بنو عمرو

العمرى وما عمرى بعرضه جانب

زيادا وقد جتنا زيادا على قدر.

كذبتم وبيت الله لا تمنعونها

فالشاعر راح يهدد بني عمرو من خلال القسم ببيت الله وما يحمله هذا المكان من القداسة الدينية في نفوس العرب فالسكوني اراد ثنائهم عن الردة ورجوعهم الى الطاعة. ويذكر امر القيس بن عابس الكندي الى أبي بكر الصديق (رض) ما اضحت عليه مدينة يثرب حيث شمتت نساءها بوفاة الرسول (ص) (١١). من قوله (الكامل)(١٢)

بنعي أحمد النبي المهدي

شمت البغايا يوم اعلن جهيل

أمسى بيثرب ثاوية في ملحد

صلى الاله عليك من مستودع

فالشاعر يشير الى مدينة يثرب وما تحتله هذه المدينة من القداسة حيث كانت ملاذ للرسول (ص) في هجرته الأولى اليها وملاذه الأخير حيث دفن فيها فالشاعر يقول شمت اهل النفاق من سكان هذه المدينة من العرب واليهود بموت النبي (ص) فهذه المدينة اكتسبت القداسة الدينية من مقام صاحب الرسالة الرسول الأعظم (ص). وقد وظفوا شعراء حروب الردة في اشعارهم بعض الأمكنة مصحوبة بيوم من أيامهم الشهيرة لتبدو اكثر تحديداً، فقد ظهرت تسميات لبعض الأمكنة سميت بها وقائعهم الحربية بأسمائها تختزل احداث عدة وقعت على ارضها (١٣). حيث نلاحظ في النصوص الشعرية لشعراء حروب الردة اسما الاماكن سميت المعارك باسمها لان الصراع حدث فيها سواء اكان الصراع جرى قرب مدينة او موضع ماء او جبل فيستمد بعض الشعراء تسمية المعركة على اساس المكان الذي حدثت فيه (١٤). وقد وظف الشعراء هذه المواضع في شعرهم في جانب الفخر

وبث الحماسة في نفوس المقاتلين في ساحات القتال، ولتصوير المعارك وتسجيل وقائعها فتمثلت في نصوصهم الشعرية.

منها قول محكم بن الطفيل مفتخرا بيوم اليمامة، بمنعه لخالد بن الوليد من دخول ارض بنو حنيفة، من قوله: (المتقارب)(١٥)

حيازمك اليوم يا خالد	وأما اليمامة فاشدد لها
بسمر القتا عزها تالد	ستلقى اليمامة ممنوعة
ل يحن لها الكف والساعد	وبيض السيوف بأيدي الرجا

يفتخر الشاعر بموضع قبيلته (اليمامة) وموقعها الجغرافي حيث كان يصعب على الجيوش اقتحامها، فهي ارض وعرة تحيطها الجبال من كل جانب فاشار اليها محكم الغرض بث الحماسة في نفوس اصحابه لمواجهة جيش خالد بن الوليد فاليمامة تعد من اهم المناطق التي دائما ما تحدث فيها معارك، حيث يتميز سكانها بالقوة والولاء لقبيلتهم، لذلك وجه محكم هذا النص الشعري لخالد بن الوليد يتهدده بالتأهب والاستعداد للمعركة كذلك في قول بن عمرو التميمي يذكر يوم بزاحة ويشيد ببيلاء خالد بن الوليد من قوله:

(الطويل) (١٦).

ويوما على ماء البزاحة خالد	آثار بها في هوة الموت عثيرا
ومثل في حافاتهما كل مثلة	كفعل كلاب هارشت ثم شمرا.

يذكر القعقاع (يوم بزاحة) وهو موضع ماء لبني أسد وقعت عنده المعركة العظيمة بين خالد بن الوليد وبني أسد وغطفان بقيادة طليحة بن خويلد الاسدي ولكثرة سقوط القتلى وصرعى شبه الشاعر القتال ب(هوة الموت) ولشراسة الفريقين فكل فريق يريد القضاء على الآخر، وفي النهاية تمكن خالد بن الوليد القضاء على حركة طليحة ومن تحالف معه من بني ذبيان و غطفان فسميت هذه المعركة على اسم ذلك المكان.

ويعد زياد بن حنظلة التميمي الى الاستنكار البطولي لفرسان المسلمين بقيادة أبي بكر الصديق (رض) في يوم الأبرق الذي انتصر فيه على عبس وذبيان (١٧) ومن قوله : (الوافر) (١٨).

ويوم بالابارق قد شهدنا	على تبيان يلتهب التهابا
اتيناهم بداهية نسوف	مع الصديق إذ ترك العتابا.

قال الشاعر هذين البيتين يوم (الإبرق) وابرق الريدة كانت به الوقعة الشهيرة بين اهل الردة وأبي بكر الصديق (رض) حيث كان من منازل بني ذبيان فغلبهم عليه أبو بكر، لما ارتدوا وجعله حمى لخبول المسلمين حيث

يفتخر زياد بن حنظلة بما حققه المسلمون من نصر في هذه المعركة الذي اقترن اسمها بأسم المكان الذي حدثت فيه. ويصف أبو بكر بن شعوب الليثي الموقف البطولي لأبطال معركة (بدر) فراح الشاعر يرثيهم في قصيدته، من قوله (الوافر)(١٩)

دعيني أصطيح يا بكر اني	رأيت الموت نقب عن هشام
ونقب عن أبيك أبي يزيد	أخي القينات والشرب الكرام
فكم لك بالطوي طوي بدر	من الخيرات والدسع العظام
وكم لك بالطوي طوي بدر	من الرغبات والنعم الجسام.

يستحضر الشاعر في نصه الشعري معركة (بدر) وما اتصفت به هذه الموقعة من كثرة القتلى فالشاعر اراد ان يرثي قتلاها الذين سقطوا في ساحات الوغى مبينة الروح المعنوية والأخلاقية التي كان يتصف بها هؤلاء المقاتلين من حيث الشجاعة التي امتاز بها مقاتلو بدر فاراد من خلال ذلك أن يجعل تلك الموقعة عبرة للحاضرين في أن يتصفوا بصفاتهم ويتحلوا بأخلاقهم.

وافتخر الاشعث بن قيس بانقاذه لنساء كندة عندما عاد زياد بن لبيد البياضي بالسبي والأموال بالقرب من معسكر الاشعث فاستغاثت به نساء كندة، كن في السبي فثار الاشعث وانقذهن من ذلك قوله: (الطويل)(٢٠).

منعت بني عمرو وقد جاء جمعهم
بأمعز من يوم البضيض وأصبوا.

يفتخر الاشعث بخلع قبيلته طاعة حكومة المدينة والتمرد عليها، بذكره لمواقعة مع جيش زياد بن لبيد البياضي في يوم البضيض وهو الموضع الذي حدثت به معركة بينه وبين جيش زياد وكان النصر حليف الاشعث عندما انقذ السبايا من جيش المسلمين فالشاعر يفتخر بذكره لهذه المواضع التي سجلت احداثهم ووقائعهم الحربية. ومدح الحطيئة العبسي قومه واثى عليهم لانهم ادلوا برماحهم جيش المسلمين في معركة الغمر الذي انتصر فيها بني أسد وغطفان على خالد بن الوليد (٢١). من قوله: (الطويل)(٢٢)

ألا كل أرماح قصار أذلة	فداء لارماح ركزن على الغمر
فإن الذي اعطيتم او منعتم	لكالتمر او احلى لحلف بني فهر.

فترى الشاعر يستذكر موقعة (الغمر) وهو ماء من مياه بني أسد وفيه كانت الوقعة بين أبي بكر (رض) وبني عبس وذبيان في اول الردة فالحطيئة قالها ايام خالد مفتخرة بالانتصار على المسلمين حيث اقترن اسم المعركة بأسم الموضع الذي وقعت به. ويفتخر ضرار بين الأذور الأسدي بيوم اليمامة بيلانه في جهاد المرتدين وثباته على الإسلام ، من قوله : (الطويل)(٢٣)

عشية سالت عقرباء وملهم

ولو سئلت عنا جنوب لأخبرت

حجارته فيها من القوم بالدم

وسال بفرع الواد حتى ترفرت

ولا النبيل إلا المشرفي المصمم.

عشية لا تغني الرماح مكانها

نلاحظ أن الشاعر قد ركز على موضع (عقرباء) وهو منزل من ارض اليمامة في طريق النباح وهو لقوم بني عامر بن ربيعة وكان مسيلمة الكذاب قد خرج اليها لما بلغه أن خالد قد توجه الى اليمامة خلفه، فالشاعر يصور ما دار في هذا الموضع الذي اقتزن به اسم المعركة التي دارت بين المسلمين وجيش مسيلمة الكذاب حيث اختلط هذا الموضع او الوادي وما فيه من حجارة بالدم لكثرة القتلى من كل الطرفين. وقال عبد الله بن حذف البكري وكان اهل الردة بالبحرين قد حاصروا بنو عبد القيس

في موضع يقال له جواثي (٢٤). من قوله: (الوافر)(٢٥).

وفتيان المدينة اجمعينا

ألا أبلغ أبا بكر رسولا

قعود في جواثي محصرينا

فهل لكم الى قوم كرام

شعاع الشمس يغشى الناظرينا

كأن دمائهم في كل فج

وشيبان وقيس ظالمينا.

تحاصرهم بنو ذهل وعجل

يذكر الشاعر ما اصاب قومه بنو عبد القيس في حصن (جواثي) عندما حاصرهم بنو بكر بن وائل مع الفرس، فاستجد الشاعر بأبي بكر الصديق (رض) في طلب العون والمدد فيصف دماء المقاتلين بشعاع الشمس من شدة السطوع فمن كثرة ما يراق من دمائهم في الطرق الواسعة جعل الشاعر يتذمر من الذي حل بهم كأنهم هم اهل الردة وتحاصرهم الجيوش لاختضاعهم واعادتهم تحت لوائها.

وافتخر الشاعر بشر بن قطبة الاسدي بدخول جيش خالد بن الوليد الذي كان احد الجنود في صفوفه في أرض الأقيديع ودحر المرتدين مفتخر ببلائه في قتال أهل الردة من بكر بن وائل (٢٦). من قوله:

(الطويل)(٢٧).

بلغنا ديار العرض منا بمخلق

العمرك ما أهل الأقيديع بعدما

كتائب تردي من حديد ويلمق

نقاتل من ابناء بكر بن وائل

كررنا ولم نحفل بقول المعوق

اذ قال سيف الله كرو عليهم

يفتخر الشاعر بدخول جيش المسلمين ارض (الأفيداع) وهو موضع في ديار بني أسد (٢٨). مرورا حتى وصلوا الي ديار بنوحنيفة فاشتبكوا مع ابناء بكر بن وائل وهو قوم مسيلمة الكذاب لان حنيفة تعود في نسبها الي بكر ابنة وائل فالشاعر يشبههم بالفرق التي تردي الحديد لشراستهم وبسالتهم في القتال للدفاع عن ارضهم. وقال المهاجر بن ابي امية شعراً مفتخراً بدحر العدو من اهل الردة في حضرموت في محجر الزرقان (٢٩)، من قوله : (المنسرح)(٣٠)

بحر يزجي في موجه الحطب

كنا بزرقان اذ يشردكم

حتى ركبتهم من خوفنا السببا

نحن قتلناكم بمحجركم

سبي الذراري وسوقها خيبا

الي حصار يكون أهونه

يفتخر الشاعر ببلائه وبلاء قومه في قتال أهل الردة في حضرموت حيث يذكر الشاعر ما وقع في محجر الزرقان : وهو كالتحذية للقوم بارض حضرموت حيث حاصر جيش المسلمين المرتدين في ذلك الحصن حتى انهزمت كندة وقتل منهم العدد الجم وانتصر المسلمون بقيادة المهاجر بن ابي امية وراح الشاعر خويلد بن ربيعة العقيلي يهدد قومه ويحثهم على الاسلام ويخوفهم من انتقام المسلمين فهم اذا ما أصروا على الردة مستذكرا ما فعله المسلمون بيوم خيبر ويوم حنين ويوم بدر (٣١). من قوله :

(الطويل) (٣٢).

اذا الخيل جالت بالمشقفة السمر

بني عامر ما عند قرة منعة

واخوانهم الشم العرائين من فهر

موارسها الاساد اساد بينة

ويوم حنين والفوارس من بدر

اليكم واصحاب النضير وخبير

اشار الشاعر الى الأماكن (خبير، حنين، بدر) وهي اماكن ذات حصون وقلاع حدثت بها معارك بين النبي محمد (ص) وبين المشركين وتمكن المسلمون من دحر هذه الاماكن فالشاعر يستذكر ما حدثت بها واعظ قومه ومحذرهم من بطش المسلمون اذا ما اصروا على الانجراف في تيار الردة واتخاذ العبرة من هذه المعارك التي تميز اصحابها بالشراسة والبسالة في القتال حيق يصفهم الشاعر بالاسود. كذلك قول زياد بن حنظلة التميمي مفتخرة باقتحام المسلمين ارض بني عيس وذبيان، من قوله : (الطويل)(٣٣)

وذبيان نهنها بقاصمة الظهر.

طرقنا بني عيس بأدنى نجاجها

يتفاخر زياد بن حنظلة بدخول جيش المسلمين الى ارض عيس وذبيان حيث اشار الى موضع (النجاج) وهو موضع قريب من ثينل وبينهما دوح، ينزلهما اللارم من بني بكر، بنو قيس وتيم الله ابني ثعلبة وعجل وعنزة

(٣٤). حيث يقول الشاعر انهم زجروهم وانزلوا بهم الخطوب والمكاره بالاشارة الى قاصمة الظهر حيث تدل على الخضوع والذل، وهي كناية عن المصائب الكبيرة التي تلحق بالقوم فتقضم ظهورهم.

وقد تطرق شعراء حروب الردة الى الأمكنة الطبيعية العامة الموجودة في البيئات سواء كانت حضرية او بدوية لان الانسان في العصر الاسلامي قد امضي حياته في اجواء بيئته الطبيعية متفاعلا معها لبساطة عيشته فهو يجوب في صحرائها فقد صور الشعراء ما كان يدور في هذه الأماكن وكيف تأثروا بها، إذن ((اصبح المكان بين تداخل وتمازج أبعاده وصفاته ومشاعر الإنسان ورغباته، أي أن المكان يعد معادلا موضوعية لدواخل الشاعر ووسيلته في ذلك احتفاء الحياة على عناصره وتجسيدها وانستها)(٣٥).

ومن هذه الأمكنة

١- الأرض

فهي تشكل منطلق الرؤية عند الشعراء التي تنتهي الى السماء حيث تجري فوقها وقائع حياتهم، وهي مكان لصراعاتهم ومن الواضح أن عصر صدر الإسلام كان عصر كثير الصراع، وان هذه الأرض كانت ساحة الصراع، ولهذا كان لها ديمومة الحضور عند الشعراء لان الشاعر كما هو معروف شاعر حسي يجسد واقعه فمن غير المعقول أن تكون هذه الأماكن امام انظاره وينأى عنها في شعره فهي أماكن عاش فيها وينتقل فيما بينها فاحتلت هذه الأماكن مكانة من وجدانه وعقله (٣٦)

ويوظفها الشاعر في شعره لغرض المدح أو الرثاء أو الفخر أو الهجاء من ذلك قول خفاف بن نديبة السلمي :
(السريع)(٣٧)

وكل شيء عمره للفناء

ليس لشيء غير تقوي جداء

الم تشمل الارض سحاب بماء

إن أبا بكر هو الغيث إذ

ذو طرة حاف ولا ذو حذاء.

تالله لا يدرك ايامه

فالشاعر يرى إن الأرض التي يحل لها أبا بكر(رض) هي مخصوصة بالمدح لانه كالغيث فهو خاص بالنفع والخير، فالشاعر يشبه الخليفة بالغيث الذي ينزل على الارض الخالية من المياه، فيرويها لانه خاص بالرحمة عكس المطر الخاص بالعذاب. وللشاعر متمم بن نويرة اليربوعي دعاء بالسقيا للأرض التي حل فيها قبراخيه مالك بن نويرة (٣٨)، من قوله: (الطويل)(٣٩).

ذهاب الغواصي المدجنات فأمرعا

سقى الله ارضا حلها قبر مالك

ترشح وسمية من البنت خروعا

وأثر سيل الواد بين بديمة

فروى جبال القريتين فضلعا

فمجمع الاسدام من حول شارع

ولكنني أسقي الحبيب المودعا

فوالله ما أسقي البلاد لحبها

تحية مني وان كان نائبا

وامسى ترابة فوق الأرض بلقعا

ظل الشاعر يدعوا بالسقيا للارض التي يحلها قبر أخيه مالك على طريقة الجاهليين معتبرا أن هذه الارض مقدسة (٤٠). فانبرى يدعوا الله في أن يسقي الأرض التي دفن فيها قبر مالك من ماء المطر، لكي يكون اخضرة وما يجلبه ذلك الدعاء من رحمة الله تتلقف قبور الموتى فتمتم لم يكتف بالأرض على أن تبكي عليه بل يطلب من السماء ان تمطر على ذلك القبر فيجمع الشاعر بين البعد المكاني من خلال توظيفه للامكنة الأرض، جبال، القرى، تراب، القبر، الوادي فالشاعر يخاطب تلك الأماكن ليخفف عن حزنه فهو يتخيل الطبيعة بأن تتهمر عليه السماء بالمطر ليسقي قبر مالك وينبت على تلك الأرض النبات ثم يختتم الشاعر بالعودة الى الارض البلقاء بانها امست ترابا بعد موت مالك.

ويشكو الشاعر عمرو بن العاص القرشي شعوره بالغرابة عندما نزل بأرض ليست أرضه، من قوله: (الطويل)(٤١).

أقول وحولي آل فھر بن مالك

جزى الله عني الازد خير جزاء

أتيت عمانة والحوادث جمّة

وليست بأرض لي ولا بسماء.

فالشاعر يشكو غرابة عندما نزل بأرض ليست بأرض قومه عندما أرسله ابو بكر الصديق (رض) في زمن الردة الى الازد عمان ليجمع منهم ما بذمتهم من صدقات فتضمنه سادات عمان واشرافها إلا أن الحنين الى ارضه الأم بقي بارزاً في شعره.

٢- الغار

ولعل حديث الغار الذي ذكر في القرآن الكريم جعل من الخليفة الأول ابي بكر الصديق (رض) ينسب الى ذلك المكان وبصحبة الرسول في قوله تعالى (ألا تتصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار) (٤٢). وحين يريد زيد الخيل الطائي حث قومه على طاعة أبي بكر الصديق (رض) وعدم الانجراف في تيار الردة الذي انجرف فيه بنو أسد وذبيان فيبين لقومه أن أبا بكر له مكانة مرموقة فهو صاحب النبي (ص) فسر تلك الحادثة الجهادية (٤٣). من قوله: (الطويل)(٤٤).

أمام انا تخشين بنت أبي نصر

فقد قام بالأمر الجلي أبو بكر

نجي رسول الله في الغار وحده

وصاحبة الصديق فس معظم الأمر.

عمد الشاعر الى ذكر صحبة أبي بكر للرسول الكريم (ص) في حادثة الهجرة ودخولهما الغار قد اعطت للخليفة الأول فضيلة وعلى الرغم من أن القرآن لم يصرح بأسم أبي بكر الا أن تواتر الرواية جعلت من أقرانه بالغار هو

تذكير بالحادثة الجهادية العظيمة ومن هنا فإن الشاعر قد وظف هذه النسبة لبيان ما لهذا الرجل من حق الطاعة وعدم التمرد على حكومته.

٣- الجبال

وتعد الجبال من اماكن العلو والرسوخ والثبات فقد وردت في اشعار حروب الردة حيث توحى بدلالات عدة فهذه الأماكن ترتبط مع طموح الذات والرغبات النفسية المتطلعة الى السمو والعلو والثبات والشموخ، ولما كانت الطبيعة منبع الجمال الكوني (٤٥). فان المكان يستمد جمالياته منها ومدخلاته الفنية والنفسية فمن خلالها تتحول الأماكن الجامدة في الشعر الى حية ناطقة، والمعادية الى اليقة مرد هذا الجمال الذي يحرك النفوس ويثير المشاعر والقلوب فهو النشاط الهادي(٤٦).

الا أن شعراء حروب الردة لم يحركهم جمال المكان وحده انما الفخر بشجاعتهم في ساحات القتال التي كان يتفخرون بها فكانوا يستمدونها من شواخص المكان العالي ذي السمة الجمالية معاني تمتزج فيها الشعور بالعلو حيث ولدت الحبال في نفوس الشعراء وصور شتى دلت على الرسوخ والثبات والخلود فضلا عن المجد والعز والعالي والبقاء ولعل كل شيء يولد وينتهي الا الحبال فهي باقية على حالها لا تتغير (٤٧). ولقد اخذ الشاعر عمر بن معد يكره هذا المعنى مفتخرا بشجاعته من قوله:

(الوافر)(٤٨).

وبهمة معشر غير الكهام

هنالك لو لقيت لقيت قرنا

تربعها أداحي النعام.

لقد احميت ذات الروض حتى

فلود القارتين الى برام

يسير بين خطم اللون عمرو

فدخل الى رنين الى بشام.

فصفح حبو بن فخليف صبح

نلحظ الشاعر يتحسر على شجاعته في سالف ايامه ويذكر قومه بالفاظ جزلة ضمن سياقات متعددة ليؤكد بها على قوته وقوة قومه، فهو في هذه القصيدة يتمسك بالمرورث القديم الذي يدل على روح الاستسلام الى الماضي حيث زمن الشباب مضى بما يحمل معه من شجاعة وهمة واقبل عليه الضمور والكهول جعله عاجز عن مقارعة الاعداء وحمل السيوف، حيث يصف الشاعر نفسه بالشجاع الذي لا يهتدي من اين يؤتى فهو لا كليل لا غناء عنده، فهو الحامي الرياضي حتى استقر واقام بها النعام مشبها نفسه بالجبل الذي يلوذ به الشارد والوارد فالجبل يحمل صفة الخلود فهو يرمز بها الى عهد مضى ومجد هوى.

وقد يراد بالجبل قوته حين يصف الجيش بالأنف العظيم من الجبل فهذا الشاعر طاهر بن ابي هالة الاسدي بانتصار المسلمين على المرتدين في اعالي جبالهم، من قوله:

(الطويل)(٤٩).

لما فضي بالاجر جمع العنات

بجنب صحار في جموع الأخابت

الى القبعة الحمراء ذات النبائت

جهازه ولم نحفل بتلك الهثاثر.

ووالله لولا الله لاشيء غيره

فلم تر عيني مثل يوم رأيت

قتلناهم ما بين قنة خامر

وفتنا بأموال الاخابث عنوة

فالشاعر يصور لنا المكان الذي حدثت فيه المعركة مع المرتدين من قبيلتنا عك والاشعريين حيث كان الصدام معهم في ذروة جبل خامر الذي يقع في ارض عك مفتخر بانتصار المسلمين عليهم، فتأتي وظيفة المكان في النص لبيان قوتهم وخطرهم على من يعتدي عليهم، سواء كان في اعلى الجبال او في الأراضي المنخفضة. وقد ترمز الجبال الى البعد المكاني وحجبه عن اشخاص قد تأثر بهم وهم قومه، فيقول مرة الأسدي:

(الوافر)(٥٠)

له ما بين جرثم والغاب

ومات الضغن وانقطع العتاب

اليهني مدرك أن قد تركنا

ان حالت جبال البشر دوني

قال الشاعر هذه الابيات عندما انهزم بنو أسد من بزاحة ولحق الشاعر بالشام فهو يحن الى ديار قومه لكن حالت بينه وبينهم جبال البشر: وهي جبال تمتد من عرض الى الفرات من ارض الشام (٥١). فالشاعر يذكر المكان الحاجز بينه وبين من يحب ويحن الهم وهم قومه بنو أسد.

ومنه قول الشاعر سلمة بن جيش الاسدي الذي يحن لديار قومه، بعدما كان مجاهدة في خالد بن الوليد يوم اليمامة، من قوله:

(البسيط)(٥٢).

منا الهوى اذ بلغنا منزل التين

انك أن تبلغني تنعشي ديني

الى اثال وقلبي مبتغي الدين.

انا وناقتي الخوصاء مختلف

جنت لارجعها خلفي فقلت لها

تذكرت مرتع منها بناحقة

الشاعر يتذكر منازل قومه عندما بلغ (منزل التين) وهو احد جبال بنو أسد فيحن لها هو وناقته، فشكل المكان فراغ في قلب الشاعر لا يستطيع الشاعر اشغاله مهما بلغ او نزل في أماكن متعددة، فيبقى حنينه، للمكان الذي نشأ وترعرع فيه. وقد تكون الجبال مرتعة لابل القوم كما قال الشاعر مالك بن نويرة اليربوعي: (الوافر)(٥٣).

ببرقة رحرحان وقد أراني

أراني الله بالنعم المندی

أ إن قرت عيون فاستضيئت

غنائم قد وجود بها بناني.

فالشاعر يشير الى (جبل رحرحان) وهو جبل كثير القنان، وقناته سود فيه فرج وأسفله سهل ينبت الطريفة ، وهو لبني ثعلبة بن سعد (٥٤). فاستغلته بنو تميم مرعى لابلها. وراح الطرماح بن حكيم الطائي يفخر بقوة قومه التي لا تضاهيها الجبال العظيمة من قوله : (الطويل)(٥٥).

ويفتق جانينا ونرتق فتقه

إذا ما عظيما الأمور استجلت

بجيش من الأنصار لو قذفو به

شماريخ رضوى الشامخات لخرت.

فالطرماح يتفاخر بقوة من سكن اليمن وهم الانتصار لان قومه سكنوا اليمن ايضا الذين اذا قذفوا بهم جبال رضوى العظيمة لانهدمت من قوتهم وعزيمتهم في مقارعة الاعداء في ساحات الوغى. وقد يراد بالجبال الى الثبات والقوة حين يصف الشاعر ثباته على الدين الاسلامي وعدم الانجراف في تيار الردة فهذا الشاعر خفاف بن ندبة السلمي يعلن ثباته على الاسلام، من قوله :

(الكامل) (٥٦).

٣٢٨

لم تأخذون سلاحه لقتاله

ولذاكم عند الاله اثم

لادينكم ديني ولا انا كافر

حتى يزول الى حراة شمام

يذكر الشاعر جبلا (حراة وشمام) وهما جبلان في نجد كل واحد منهما في مكان فاراد الشاعر من ذكر هذين الجبلين انه اذا انتقل احدهما من موضعه الى موضع اخر فهو يغير دينه وهذا لا يحدث الان الجبل رمز للثبات والقوة.

٤- البحر

ومنذ أقدم العصور كان الشعراء على صلة مع البحار او الانهار لكون هذه البقعة المكانية كانت احد مسببات الالهام الشعري، توارثها الشعراء عبر الأحيال فهو تراث امتهم فالعربي قد واصل حضور البحر والنهر في حياته وكان له اكبر تأثير فيه (٥٧). فالبحر بصخبه وامواجه وهيجانه يبيث الخوف في النفس البشرية وفي الوقت نفسه يجمع الضدين الخوف والاطمئنان والبحر يتعانق مع ارض الصحراء، وقد وردت البحار والمياه بكثرة في شعر حروب الردة وهذا يشير الى طغيان هذه الأماكن على ذات الشعراء وانعكاسها على الشعر ليوحي بالعمق والخوف والسعة والفضاء والسكون والثورة وقد يرد دلالة على الحاجز المكاني والعقبة الفاصلة التي يجتازها الممدوح وصولا لهدفه (٥٨). فيقول في ذلك عفيف بن المنذر التميمي :

(الطويل) (59).

الم تر أن الله ذلل بحره

وانزل بالكفار احدى الجلائل

دعونا الذي شق البحار فجاءنا

بأعجب ومن فلق البحار الأوائل.

فالشاعر يشير الى ما أنعم به الله سبحانه وتعالى من كرامة قطع مياه البحر الى جزيرة دارين فاقشح العلاء بن الحضرمي الى تلك الجزيرة فوقع بالمرتدين فيها هزيمة منكرة.

وكذلك قول الشاعر كراز الفكري يصف اقتحام جيش المسلمين للبحر وعبورهم الى جزيرة دارين من قوله : (البيسط) (٦٠).

ذرعا فحضت الى كفار دارين

ضاق الفضاء بدارين وساكنها

وسط الجزيرة بالصيد الميامين

من حيث لم يعلموا حقا رميتهم

اخلى عن الموت اصحاب اليتامين

لما رأونا نخوض البحر نحوهم

فاستغلب القوم من دون الاطارين.

ظنو الظنون وقالوا البحر دونهم

يصف الشاعر اقتحام المسلمين للبحر الذي ظن المرتدين انه حاجز يصعب اقتحامه لكن بفضل الله تعالى على جيش المسلمين ثم اقتحام البحر حيث يصف الشاعر ما حدث في هذه المعركة وكسفية القضاء على المرتدين حيث لم ينج منهم احدا، فافتخر المسلمين بهذا النصر العظيم الذي تحقق على سكان هذه الجزيرة الذين انجرفوا وراء تيار الردة.

ومنه قول الطرماح بن حكيم الطائي يفتخر بقومه مشبها اياهم بالبحر، من قوله :

(الطويل) (٦١)

وكانت اذا سيمت هوانا اقرت

اقرت تميم لابن دحمة حكمه

وكانت تميم وسط قحطان إذ سمت كمقدوفة في البحر ليلا فضلت. يذكر الشاعر (البحر) في النص الشعري رمزا للفخر حيث يصف قومه بالبحر عندما يهجو بنو تميم حيث يصف الطرماح بنو تميم كأنهم حجارة مقدوفة وسط البحر فهي لا تؤثر فيه فلفظة البحر جاءت متناسبة في ميزات لها المتطلعة إلى ما هو أفضل للوصول الى ما هو سام.

الخاتمة

نستشف مما سبق ان شعراء حروب الردة وصفوا في شعرهم اسماء البلدان والاماكن التي شكلت جانبا واقعياً في حياتهم وفي نصوصهم الشعرية، اضافة الى توظيفهم الى اماكن كانت لها خاصية قدسية، اضافة الى ذكرهم لأسماء الاماكن التي سميت المعارك باسمها لان الصراع حدث فيها وقد ذكروا الامكنة الطبيعية ذات الفضاءات الواسعة موظفين المواضع او الاماكن في شعرهم في جانب الفخر وبث الحماسة في نفوس المقاتلين في ساحات القتال، ولتصوير المعارك وتسجيل وقائعهم.

الهوامش

- ٢- ينظر المكان في الشعر الاموي، جميل بدوي حمد الزهيري، أطروحة دكتوراه، الجامعة المستنصرية، ٢٠١٥: ٣٦.
- ٣- ديوان حروب الردة: ٨١. والشعر مذكور في ديوان الطرماح: ٧٠-٧١.
- ٤- المصدر السابق نفسه: ٨١.
- ٥- ينظر: المكان في شعر صدر الإسلام (دراسة فنية) شروق حيدر مليح العبودي، كلية الآداب جامعة القادسية، رسالة ماجستير ٢٠١٦: ٧٧.
- ٦- ديوان حروب الردة: ٣٣٤-٣٣٥. والشعر مذكور في اسد الغابة ج٤/٣٧١.
- ٧- ينظر: الكامل في التاريخ: ٢٢١.
- ٨- ديوان حروب الردة: ٢٧٠. والشعر مذكور في ديوان حسان بن ثابت ج١/٣٣٤.
- ٩- المصدر السابق نفسه: ٥٥. والشعر مذكور في مرآة الجنان وعبرة اليقظان: ٦٤.
- ١٠- المصدر السابق نفسه: ٢٤٨. والشعر مذكور في تاريخ الطبري ج٣/٣٣٣.
- ١١- ينظر: المحبر: ١٨٦.
- ١٢- ديوان حروب الردة: ١٧١. والشعر مذكور في ادب اليمن ج١/٥٧٧.
- ١٣- ينظر: حركة الشعر في ثورة التوابين وامارة المختار الثقفي: ٢٠٨.
- ١٤- ينظر: أيام العرب في الجاهلية: ٤١.
- ١٥- ديوان حروب الردة: ١٣٣. والشعر مذكور في المستقصى من أمثال العرب ج٢/٢٥٢.
- ١٦- المصدر السابق نفسه: ٢٠٥. والشعر مذكور في اسد الغابة ج٤/٤٠٩.
- ١٧- ينظر: معجم البلدان ج١/٦٨.